صـــورة الثـــورة في روايـــة
" هموم الزمن الفلاقي" لمحمد مفلاح.

الدكتورة: نصيرة زوزو
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة- الجزائر

لقد كانت الثورة التحريرية الجزائرية ولازالت مادة خصبة بالنسبة للأديب الجزائري يستمد منها موضوعاته وشخصياته وعوالم نصوصه، وهو بهذا التوظيف يستثير وجدان الأمة كلها؛ لما لهذه الثورة من حضور دائم في وجدان من عاش أحداثها أو قرأ عنها.

وفي هذا الصدد يقول مخلوف عامر:« لعله مما لا يخفى على قارئ يطالع الأدب الجزائري أن يلحظ فيه خاصية الثورة بوصفها هاجسا أساسيا يحرك عملية الكتابة أو هي تتحرك فيه. والواقع أن هذه الظاهرة لا تدعو إلى الغرابة مادامت الجزائر حديثة عهد بحرب التحرير، وما دام طابع عصرنا كله طابعا تحريريا»(1).

ويعد الروائي محمد مفلاح من جيل كتاب الرواية العربية، الذي ظهر بعد جيل المبدعين الكبار أمثال عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار، ليغني بدوره الحقل الثقافي بانتاجاته الغزيرة التي تناولت في شق منها الثورة التحريرية.

محمد مفلاح روائي وقاص وباحث في التاريخ، من مواليد عام 1953 بولاية غليزان التي ألهمته كتاباته الإبداعية، وأنجز بها كل أعماله المتعلقة بتاريخ منطقة غليزان وتراثها، وهو اليوم بعد تقاعده متفرغ للكتابة الإبداعية والبحث في تاريخ المنطقة وتراثها الثقافي(2).

احترف مفلاح الرواية الواقعية بعد أن تشبّع بقراءات متنوعة باللغتين الفرنسية والعربية. يقول في هذا الصدد:« لقد ملتُ منذ البداية إلى الكتابة الواقعية متأثرا بالروايات العربية والعالمية، ولاشك أن هذا الميل يناسب طبيعتي النفسية ويعبّر عن توجهاتي الفكرية ورؤيتي الفنية، فالتزمت بهذا الأسلوب الذي أراه ملائما للتعبير عن عوالمي

الخاصة ومشروعي الثقافي. والواقعية في فهم كبار الأدباء هي الاتجاه الذي يعالج حقائق الحياة. وانطلاقا من هذه النظرة، أرى أن خصوصية الرواية الجزائرية منذ صدور (نجمة) وثلاثية محمد ديب، صنعها التاريخ الوطني والتراث الثقافي للجزائر»(3).

محمد مفلاح روائي غزير الإنتاج، وله أربع روايات جرت أحداثها في زمن الثورة التحريرية وهي: الانفجار، وهموم الزمن الفلاقي، وزمن العشق والأخطار، وخيرة والجبال. يقول في خصم حديثه عن إبداعاته:« تمكنتُ من كتابة أولى رواياتي وهي (الانفجار) التي نلت عنها سنة 1982 الجائزة الثانية بمناسبة الذكرى العشرين للاستقلال، وأتذكر أنني أنجزتها في ظرف أيام قليلة على آلة كاتبة محمولة، ولما رأيت أنني لم أقل فيها كل شيء عن أجواء وشخوص منطقتي التي عاشت ويلات الاستدمار الفرنسي واحتضنت ككل مناطق بلادي الثورة المجيدة، كتبت بعدها ثلاث روايات تجري أحداثها في الأجواء نفسها، وهي(هموم الزمن الفلاقي)، التي نلتُ عنها سنة 1984 الجائزة الأولى بمناسبة الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة التحريرية، و(زمن العشق والأخطار) الصادرة سنة 1986، ثم(خيرة والجبال) الصادرة سنة 1988»(4).

وانطلاقا من اهتمامنا بالثورة الجزائرية التحريرية وقيمها النبيلة التي نهضت عليها، وطرائق توظيف الكتاب لها، ولعلو قيمة رواية(هموم الزمن الفلاقي) التي نال بها صاحبها الجائزة الأولى بمناسبة إحياء ذكرى الثورة، جاءت هذه الدراسة لتبين عن صورة الثورة في هذا العمل المتميز الذي سنحاول بدءا تقديم ملخص عنه.

1- ملخـــص الروايـــة:

هموم الزمن الفلاقي هي إحدى القصص التي تحاول الرجوع إلى ثورة التحرير الجزائرية، إذ تحكي قصة بطلها حماد الفلاقي الرجل البسيط الفقير الذي غيّرته حياته البائسة فانتفض لمواجهة فرنسا أعتى القوى المستعمرة في ذاك الزمان، ليستشهد في نهاية المطاف.

تزاوج الرواية بين حاضر القص وماضيه، الحاضر الذي ينطلق من إحدى المقاهي بالمدينة، حيث يجلس حماد الفلاقي منتظرا انفجار القنبلة التي وضعها بخمارة ليون، وفي تلك اللحظات تعود ذاكرته إلى الوراء، فيستعيد ماضيه القريب، يتذكر زوجته وأولاده الذين تركهم بالقرية واتجه صوب المدينة ليؤمّن لهم لقمة العيش.

بعد مرور عامين من غربته يعود أدراجه إلى القرية ثائرا على أوضاعه المعيشية البائسة التي كان سببها الاستعمار، وتتداخل هنا قصته مع قصص أخرى، قصة زوج أخته المهدي، الذي تمنى لو كان شابا ليلتحق بالثورة، وحكاية سي عدة الطالب صديق حماد الذي كان له فضل كبير في تغييره وإدخاله لبّ الثورة.

تحكي الرواية كذلك قصص من خانوا وطنهم، وفضّلوا الانضمام تحت لواء القوات الفرنسية، مثل القايد موسى الجواج، وجلول الكلبي، كما تحكي عن القبطان الفرنسي وغيرهم ممن يمثلون قوى الاستعمار، التي عملت على استنزاف خيرات البلاد وتجويع أهلها وتجهيلهم.

إن القارئ لهذه الرواية يلحظ أن ملامح الثورة بارزة فيها، ويتبين أن الثورة اتخذت شكل صراعات مختلفة بين فئات متباينة؛ أي إن هنالك عدة قوى متصارعة، تمثل الأولى كتلة وطنية وخيّرة رفضت الاستعمار بكل أشكاله؛ لأنها رأت فيه السبب الأوحد في فقرها وجهلها وجوعها بامتلاكه أراضيها الخصبة، وكتلة خائنة وشريرة تمثّل أذناب فرنسا، وهي الفرقة التي انضمت تحت لواء العدّو؛ لأنها رأت فيه القوة والمال والجاه والسلطان، وكتلة ثالثة تمثل القوى الاستعمارية نفسها، التي نظمها إلى الكتلة الثانية، غير أننا فصلناها عنها لعدم تركيز الراوي عليها، حيث كان سرده منصبا أكثر على الفرقتين الأوليين.

وسنعمل فيما يلي على تفصيل الحديث في هذه القضية، مبرزين طبيعة هذا الصراع والفروق الجوهرية بين هذه الكتل المتناحرة، مع إبراز صفات كل واحدة وأهدافها.

1- الكتلــة الوطنيــة:

تمثل الكتلة الوطنية القوى النبيلة التي دافعت عن البلاد بكل ما تملك من قوة، حيث رفضت قوى الظلم والطغيان والاستعباد، وأرادت التخلص من براثن الاستعمار المرير الذي جثم على قلوب الناس سنين طوال. تمثّل هذه القوى النبيلة شخصيات عديدة، يقف في مقدمتها بطل الرواية حماد الفلاقي.

عاش حماد الفلاقي يتيما بمنطقة الجبل الأخضر إحدى قرى غليزان، مات والده وهو طفل، وتوفيت أمه في مراهقته. حكى له المهدي أن والدته بكت كثيرا على قطعة أرض مساحتها هكتاران باعها زوجها للمعمّر في عام القحط مقابل كيس من الشعير.

تزوج حماد في شبابه من فاطمة ابنة أخ المهدي وأنجب منها ثلاثة أطفال، وصار عاملا موسميا عند المعمّر فانسا، الذي طرده بعد أن قال له حماد ذات مرة بلهجة حادة:« أ أنا كلب؟ تفوه.. أنت الكلب.. هذه الأرض ملك أهل الدوار.. والقطعة الشمالية كانت لأبي عواد الفلاقي.. سرقتها منه...»(5).

حماد الفلاقي هو ابن فلاقي كما هو مجسد في المنقول السابق، وهذا يشير إلى أن الروح النضالية متأصلة فيه، إنها صفة متوارثة، وتشير إلى تجذر الثورية في الشعب الجزائري، الذي يتصف أيضا بالأنفة وعزة النفس، حيث لا يقبل الإهانة من شخص سرق أرض آبائه وأجداده.

عمل حماد أكثر من مهنة، بناء دور قروية بثمن بخس، وبائع أقمشة وأمشاط ومناديل ملونة، وراعي غنم، ليكره كل شيء ويقرر التوجه إلى المدينة، ليمكث هناك عامين كاملين، عمل في مطعم المعلم بوزيد الذي طرده بعد أن ردّ عليه حمّاد بكلام قاسي، حين شعر بإهانة صاحب المطعم له، ثم توجّه بعد هذا إلى مقهى الشوالة، ليقرر في نهاية المطاف العودة إلى قريته ثائرا على الوضع المرير، وعلى كل الناس.

لقد حاولت الرواية على طول صفحاتها تصوير الحياة البائسة التي عاشها حماد، وما المهن التي تداول عليها إلا دليل على ذلك. لقد عرف حياة الفقر والجوع، وشرب أهل قريته وأبناء جلدته من الكأس نفسها، وهذا ما تسعى الرواية إلى تكريره في مواطن كثيرة من متنها.

يقول الراوي مثلا في إحدى المواضع:« الأكواخ الطينية البائسة منتشرة هنا وهناك على بساط الأراضي الحمراء الخصبة. بصق المهدي حانقا على نفسه وساخطا على هذا العالم الكئيب.. تمتم:" لا أعمل.. لا أعمل" هذا اليوم ليس يومه. إنه يشعر بثورة رهيبة في داخله. أسرته ستموت جوعا إن لم يشتغل في حقول المعمر فانسا. الفقر.. الفقر.. اللعنة على الفقر.. هذا الشبح يطارده كالكلب المسعور. لماذا يا رب؟ لماذا؟(..) (فانسا) لن يرفق به. فمن يساعده على مواجهة الحياة القاسية؟ أهل الدوار فقراء مثله، يكدحون في مزرعة المعمر»(6).

ينبغي عليه أن يجهد نفسه ليطعم أطفاله، وإلا سيموتون جوعا، فأبناء دواره أيضا فقراء، فمن يساعده؟ ومن يقف إلى جنبه في محنته؟ إنها محنة تعم الجميع، وتلقي

بظلالها على أهل دواره المساكين، الذين يعملون جاهدين على أرض هي في الأصل أرضهم الخصبة المسلوبة.

الشيخ المهدي زوج أخت حمّاد يعيش الفقر عينه. يصف الراوي منزله قائلا: « مسكن الشيخ المهدي الفلاقي لا يبعد كثيرا عن الوادي. كوخ حقير، منحني على نفسه كالمحتضر. من يراه عن بعد كيلومتر أو أكثر يظنه كومة من أوساخ مزبلة العساكر»(7).

ولما توفّي المهدي عملت زوجته خديجة بكدّ لتطعم ابنها الوحيد. يقول الراوي: « ... وما بقي لها إلاّ أن تقصد حقول القمح وتجمع السنابل الذهبية التي تضيعها آلة الحصاد. وهكذا أصبحت خديجة(لقاطة) ممتازة تضاف إلى جمع المحرومات اللاتي يركضن تحت أشعة الشمس المحرقة بحثا عن سنبلة ضائعة يا لها من عملية شاقة، تحني ظهر(اللقاطة) وتضعف بصرها وتجعل رأسها يرن بألف جرس من النحاس»(8).

ويتحدث الراوي عن محمد ابن المهدي قائلا:« تدثّر محمد بالفراش الصوفي القديم الذي تفوح منه رائحة البؤس وانكمش على نفسه وتظاهر بالنوم»(9)، ويقول عنه أيضا:« تنهد محمد يائسا وهو يحك جسده الذي لم يلامسه الماء منذ وقت طويل. البئر الوحيدة تبعد عن الدوار بأكثر من ثلاثة كيلومتر.. وأمه خديجة، بعد صلاة الفجر، تجلب للبيت على حمار كسول برميلين من الماء، لا يكفي إلاَّ للشرب وغسل الأواني وبعض الثياب لمدة يوم واحد، أما الواد الصغير والقريب من الكوخ فلا يعرف المياه إلا في فصل الأمطار الغزيرة»(10)، ويقول كذلك:« شعر محمد بالألم يقطع أمعاءه. الجوع يلاحقه كالظل، كالثورة الطاحنة التي تعتمل في داخله(..) حمل محفظته الممزقة وجرى(..) جرى وجرى. جسمه الهزيل لم يتحمل تعب الجري(..) خجل من نفسه وهو ينظر إلى أسماله الباليه المتسخة الممزقة في أكثر من مكان»(11)، ويضيف قائلا:« حك محمد شعره الأشهب بأظافره القذرة بلا ريب، رأسه أصبح ساحة للقمل. في مؤخرة رأسه لدغته قملة شرسة، ثار الطفل حانقًا على كل قمل الدنيا وصاح بحقد:

– سأقتلك أيتها القملة اللعينة..»(12).

إن هذه الصرخة هي صرخة حانقة وثائرة على كل شيء، على وضعه البائس وفقره وجوعه، على فرنسا التي سلبت وطنه واستنزفت خيراته، وسرقت أراضيه التي كانت ستكون جنته، إنه يريد قتل القملة، وهو في ذلك يريد الفتك بكل من أفسد حياته، ونهش جسده النحيل وجوّعه وقضى على طفولته البريئة. إنه يصرخ بحنق صراخات

مريرة بنفس موجوعة تريد القضاء على كل قمل الدنيا؛ أي على كل الأعداء، أعداء الوطن الذين تسببوا في فقره.

تكاد لا تخلو كل صفحة من صفحات" هموم الزمن الفلاقي" من الحديث عن فقر أهل القرية وحالتهم المعيشية المزرية، ويكون دافع التركيز على هذه الحالة الاجتماعية المتردية إبراز أن ثورة الأحرار لم تأت من فراغ ودون أسباب، إنما هي ثورة ضد فرنسا المستعمِرة التي عملت على تفقير الشعب وتجويعه واستنزاف طاقاته.

ويذكر مخلوف عامر في هذا المضمار أن« الغرض من هذا التصوير هو خلق المبررات الكافية لتقبل البديل، وما التبديل إلاَّ هاجس الالتحاق بالجبل، ففكرة الانضمام إلى المجاهدين هي المخرج الوحيد الذي ينتظر كل مواطن غيور على وطنه»(13).

لقد كان هم حماد الأوحد الجري وراء لقمة العيش، ولكنه ظل على فقره وأدرك أخيرا السبب. يقول:« لقمة الخبز كانت همي الوحيد، بحثت عنها في كل مكان. تعبت كثيرا وعملت مائة حرفة ولم يشبع أطفالي.. وموسى الجواج والمعمر فانسا والعين الزرقاء وغيرهم من العساكر والغرباء وأعوان فرنسا ينعمون بخيرات أرضنا.. الآن، فهمت لماذا نحن فقراء.. ولماذا الخنازير– أغنياء؟»(14).

لم يكن حماد مهتما بالثورة، ولم تكن من اهتماماته، ففي ماضيه القريب كان يجلس في إحدى أركان المدينة ولا يبالي بالزمن الذي يدبّ في نفسه مثل شيخ مريض، لكن منذ وضع القنبلة في خمارة ليون شعر أن الزمن تغيّر وأصبح له معنى. إن كل لحظة كانت تمر وهو ينتظر انفجار القنبلة فجّرت في أعماقه ألف ينبوع.

لقد تغير حماد كثيرا. يقول:« قبل القنبلة كنتُ شقيًا.. يعذبني التفكير المستمر في همومي الشخصية فأتقلب في الفراش ولا أنام(..) قبل أن ألمس القنبلة كفتُ ضائعا.. كنتُ مريضا بالسل الزمني. الطريق أمامي وأنا تائه. كنتُ أقول في نفسي" كل شيء يفوق طاقتي.. وأنا عاجزٌ عن تغيير واقعي". كنتُ مخطئا. استطعتَ يا سي عدة الطالب أن تقنعني بالحركة في الاتجاه الصحيح. لقد قلت لي بحماس:" أنت منا.. مسحوق مثلنا.. أرضنا مغتصبة". إيه يا الطالب ضربت على الوتر الحساس. عانقتك وبكيت. تذكرت طفولتي المحبولة من التراب الأحمر. أخذت منك الصندوق وقلت لك:" سيرقص جبلنا الأخضر" وضحكت مسرورا بحياتي الجديدة.. دخلت في رحم الزمن الثاني.. زمني العنيف المتمرد»(15).

شتان بين حياة حماد الأولى والثانية. قبل وضع القنبلة كان رجلا شقيا وجاهلا لا يعرف معنى للحياة الحقة، كان كل همه الجري وراء لقمة خبز رديئة، لم يسأل نفسه يوما لما هو يكدح ويشقى ويذل دون أن يبرح الفقر داره؟ لما كان يأكل الخبز والحليب في حين كان فانسا وأمثاله ينعمون بكل ما لذّ وطاب، الآن أدرك السبب، الفضل في ذلك يعود لسي عدة الذي أيقظه من سباته.

الآن فقط فطن من غفلته، لهذا صار فرحا مسرورا بحياته الجديدة، إن قلبه وروحه يرقصان فرحا، تتعالى الضحكات داخله معلنة انتصاره بعد أن وضع القنبلة. يقول الراوي مصورا ذلك:« انتصر عليهم وهم لا يعلمون. بعد دقائق قليلة سيموتون.. الخنازير.. إلى الجحيم إلى الجحيم»(16)، ويضيف:« ثم وضع الصندوق داخل المصرف. هه.. هه.. انتصرت عليهم– خرجت بخفة منتشيا بهذا الانتصار عليهم(..) مدينة غليزان مثلي، متوترة الأعصاب، تتحدى في صمت أحذية الخنازير الثقيلة.. بعد دقائق قليلة ستفرح(..) فجّروا التاريخ.. فجّروه الآن وليس غدا.. الجبل الأخضر سيحتضن كل البؤساء.. كل المستضعفين... هه.. هه.. هه»(17).

في انفجار القنبلة تفجير للثورة، ثم هي تفجير لنفس حماد الموجوعة والمثقلة بهموم الماضي والحاضر، إنه يريد وطنا عادلا يجد فيه الإنسان الكرامة والعزّة. لقد ثار ضد واقعه الكالح الموبوء، كره الفقر والجوع والعرى والأحزان، فقام منتفضا منتصبا مثل الجبل الأخضر في عزة وأنفة وكبرياء، مثل الجبل في علوه وشموخه، وباللون الأخضر الذي يشير إلى الخصب والنماء، كيف لا وهو الجبل الذي أنجب من رحمه الأبطال من جهة، كما يشير إلى خصوبة الأرض من جهة أخرى.

لقد أصبحت حياة حماد بلون وطعم آخرين، في انتفاضته ثورة عارمة. يقول:« وأنا يا صديقي[سي عدة الطالب] سأنطلق كالعاصفة الهوجاء... سأحطم كل شيء.. في أعماقي تنمو الأشجار وتنمو.. سأسقيها بدمائي.. تربتها جسدي. في عيني تكمن ثورة المحرومين.. آه يا سي عدة الطالب، أخيرا فقط، فتحت عيني على حقيقة كنت أجهلها وأنا في ولادتي الجديدة أهذي. فعلا يا صديقي، أمام المواجهة يعرف الإنسان نفسه بالتحدي يصنع مصيره. أنت بطل، أجل. مازلت أذكر عبارتك الحكيمة:" البطولة ممارسة يومية ضد الموت والعدم"»(18).

لقد تجسدت ثورة حماد أكثر بعد زرعه للقنبلة وعودته إلى القرية، لقد ثار ضد نفسه وضد الناس جميعا. على الجميع أن يلتف حول رجال الجبل الأخضر، ويحرق القوانين الظالمة التي تُجمد هذا الواقع ولا تدعه يسير نحو الأمام، كما يقول الراوي، لقد عاد حماد من المدينة شخصا آخر، يتكلم بحماس عن الظلم والاستعمار وجبهة التحرير ويسب فرنسا والموالين لها من حركة وخونة.

لابد- إذن- من التغيير، ولا شيء غير التغيير الجذري لحل المشكلات جميعها. يقول الراوي:« هذا العالم الظالم لابد أن يتغير. يريده حماد الفلاقي أن يمشي على رجليه لابد أن يتغير. طبعه عنيف كالعاصفة وهو لا يدري كيف يخفف من حدة طبعه. يتمنى لو كان قويا، يملك أعصابا هادئة وباردة كثلج الجبل الأخضر، حتى يتمكن من عمل أمور كثيرة(..) إنه لا يأبه بشيء. السجن؟ هه.. هه.. الموت؟ طز. الحياة بدون خبز وكرامة أحقر من الموت؟ من يرضى أن يعيش مجرد العيش كالحيوان فهو نذل كبير ولا يستحق إلاّ بصقة كبيرة على وجهه، بصقة مشحونة بغضب كل الثوار»[19].

شخصية حماد- إذن- شخصية نامية، حيث صُورت بطريقة تطوَر فيها نضجها الفكري والثوري، فمن شخص بسيط كان لا يفكر في شيء إلا الكد والاجتهاد ليعيل عائلته، إلى مناضل يدعو للالتحاق بالثورة، ويحقق انتصاره العظيم بزرع القنبلة والصعود إلى الجبل، ثم بهجوم على معسكر الفرنسيين.

يتميز حماد بصفات كثيرة، إنها ميزات البطل الثوري، إنه يتصف بطبع غاضب وعنيف تجاه قوى الظلم والطغيان، ولا تصوره الرواية إلا وهو يحمل الهراوة في يده، إنها دليل على أن النصر والاستقلال لا يردّ إلا بالقوة، إنه المنفذ الأوحد للخلاص من عفونة الواقع الاستعماري واسترداد العزة والكرامة.

حماد شخص انفعالي ومندفع مثل السيول الجبلية، عواطفه ملتهبة ولا تهدأ أبدا، كما تصبغ عليه الرواية صفات نبيلة كثيرة، فهو صاحب شرف ومروءة، إذ أهان القايد موسى أمام الملأ وعنّفه، حين تجرأ على إغراء خديجة أخت حماد، كما أنه يمتاز بالقوة والشجاعة فلا يهاب أحداً، ويدل على ذلك المنقولين التاليين:« جلس حماد قرب المهدي(..) وضع يده القوية على جبينه الملتهب»[20]، و« ضحك الطفل وشدّ على ذراع خاله وسار إلى جنبه، إنه يشعر بالقوة والدفء حين يكون بينهم حماد الفلاقي الذي يتكلم

بحماس فيسب العساكر والمعمرين والمعجبين بفرنسا، لا يخاف أحدا وإذا ما نصحه أي إنسان بأن لا يرفع صوته(..) فيخرج حماد لسانه مرددا شجاعة: طز.. طز.. طز..»[21].

إن صفات الفتوة والقوة هاتة، لم تعد من صفات شخصية الشيخ المهدي، الذي ينتمي إلى الكتلة الوطنية كما هو حال حماد بطل الرواية.

تتحدث الرواية– وكما ذكرنا آنفا– عن الحالة الاجتماعية المتردية التي يعيشها المهدي، فهو رجل فقير، يكّد لإطعام ثلاثة أفواه، زوجته العجوز مريم وزوجته الشابة خديجة وابنهما محمد، لكنه لم يعد باستطاعته ذلك، لقد كبر في السن، وأذهب الزمن حيويته ونشاطه. اتجه قبيل أيام من وفاته صوب شجرة البلوط العملاقة، وهناك عاوده الحنين إلى الماضي، فتأسف على عدم قدرته على الالتحاق بالثورة. يقول الراوي:« كان كتلة من الحيوية والحماس. إيه يا زمن الانفجار أقبلت في وقت فقد فيه الشيخ المهدي الفلاقي كل شيء. أين كنت؟ لقد انتظرك طويلا. عرف كل أنواع الشقاء وهو ينتظر. وفجأة، يا أيها الزمن، انفجرت كالبركان. ماذا يجري هناك، في أدغال الجبل الأخضر؟ آه.. لو كان شابا قويا لركض الآن إلى هناك. ينضم إلى صف الثائرين على الأعداء، على الفقر والظلم والمعمر(فانسا).. ويقول للمجاهدين:" أعطوني سلاحا... أعطوني سلاحا..."»[22].

والمهدي مثل حماد يؤمن إيمانا قويا بأن زمن الثورة قد دبَّ في الأجساد والنفوس والأرواح، يقول لحماد:« ألا تشم رائحتها يا حماد؟ هل فقدت حاسة الشم يا ولدي؟ لهيبها يسري في عروق المحرومين دما غزيرا.. الجبل يتحرك والوادي يتحرك والقلوب كذلك.. كل حجرة وكل شجرة ترحب بالزمن القادم، زمن النيران»[23].

بل إن المهدي ومن شدة حبه للثورة، سيوصى ابنه الوحيد محمد بأن يكون بطلا مثل خاله حماد، ويتوجه إلى بيت المعمر فانسا، ويفرغ في رأسه ألف رصاصة، ثم يلتحق بالجبل. إنها دعوة إلى زرع روح الثورة في النفوس.

محمد الطفل الصغير الذي لايزال يعيش زمن البراءة، تمنى أن يكون ثوريا تيمنا بخاله حماد، لقد كان هذا الأخير يحدثه عن المعمر فانسا، وبأنه رجل شرير يجلد عماله بالسياط مثل العبيد ويركل الأطفال الذين يعملون في المواسم.

تكوّن في داخل محمد كره وحقد شديدين على معلمه اليهودي بالمدرسة، الذي كان لا يتورع عن إهانته و تحقيره، كما كره– مثل خاله حماد– القايد موسى الذي أراد أن

يجعله راعيا في ضيعته، وكره المعمر فانسا والقبطان وجلول الحركي، وما كان يحلم في كل لحظة يخلو فيها بنفسه إلا بالالتحاق بصفوف المجاهدين في الجبل. يقول الراوي: « وماذا يفعل الآن؟ لن يذهب إلى المدرسة مهما كان الأمر، ولن يصبح راعيا عند أهل الدواوير. حلمه الوحيد أن يكون مجاهدا مع خاله حماد وسيحقق الصورة التي تخيل نفسه عليها(..) الحياة هنا تافهة لا معنى لها، أما هناك، في الجبل الأخضر، فكل شيء متوفر، حتى السلاح. سيطلب من خاله أن يعطيه مسدسا يخفيه تحت جلبابه ويعود إلى القرية فيقتل كل جنود فرنسا، يفجر المركز العسكري ويهرب إلى الجبل»[24].

إن النزعة الثورية مبثوثة في نفس كل فرد في المجتمع، شيخا كان مثل المهدي، أو شابا مثل حماد، أو طفلا مثل محمد، هذه الشخصية التي أحسن الروائي تهيئتها تدريجيا لتأصيل الثورية في نفسها. لقد وصل بها إلى درجة الرفض الصامت، رفض لكل ما يحيط بها.

نشعر أن محمدًا في هذه الرواية ليس بطفل، إنما هو رجل واع، تكاثفت أسباب كثيرة لتجعله في النهاية يقرر التوجه للجبل الأخضر، وهو الملاذ والحماية، المكان الذي سيجد فيه راحته النفسية، ويلتحق فيه بصفوف الثوار.

إن صورة محمد صورة جميلة، تحاول أن تبرهن على أن زمن الطفولة قد ولىَّ، زمن الهروب إلى حضن الأم الدافئ. لقد اندثرت مرحلة الثورة السلبية، وتحولت إلى ثورة إيجابية، ورجولة متدفقة، كيف لا وقد قرر محمد تخطي الدروب الصعبة والوعرة قبل بلوغه الجبل الأخضر، غير أن حلمه ذاك انطفأ، حين تلقى رصاصتين أردته قتيلا، ولعل في موته هذا إشارة إلى أن كل فرد صار عنصرا فعالا في الثورة، التي مدت يديها لتحتضن الصغار أيضا، هذه الثورة التي صارت مصدر خوف وقلق للقوات الفرنسية فاغتالت البراءة.

سي عدة الطالب اسم آخر يحلق في سماء الكتلة الوطنية الغيورة على أرضها، والتي رفضت الاستعمار ونددت بأفعاله. عدّة هو صديق حماد وابن دواره، بل هو صاحب الفضل عليه؛ حين دّله على الطريق الصحيح، طريق الثورة. يتذكر حماد كلام صديقه فيقول:« لقد قلت لي بحماس:" أنت هنا.. مسحوق مثلنا.. وأرضنا مغتصبة" إيه يا الطالب ضربت على الوتر الحساس. عانقتك وبكيت»[25].

لقد كان عدّة محبا لمحجوبة ابنة دواره التي اغتصبت فقررت الانتحار. لقد اغتصب المعمر شرف العذراء، كما اغتصب أرض الجزائر الطاهرة، من هنا بدأ سي عده مرحلة جديدة في حياته أراد فيها الانتقام ممن دنّس شرف الحبيبة والوطن، فانضم إلى صفوف المجاهدين.

بدأ سي عدة يولج حماد شيئا فشيئا إلى حضن الثورة، يقول الراوي:« سي عدة الطالب أخبره[حماد] بأشياء كثيرة:" حرقوا كوخ العانتري بعدما ذبحوه في واد مينه.. قتلوا عشرة رجال وامرأة في ضريح سيدي يحي.. وثلاثة رجال من الشوالة.. أفرغوا مائه رصاصة في رأس الزرقاوي.." رق قلب حماد الفلاقي وامتلأ بالمحبة لهؤلاء الشباب... لهؤلاء الأبطال الذين قالوا لا وألف لا للمسخ والظلم»(26).

كما قال في موضع آخر:« الأرض تكفي كل الناس.. ولكن بعض الناس يريدها له فقط ليخدمه البعض الآخر.. الفقر من صنع أيدي البشرية الظالمة... الله أعطانا كل الخيرات والكلاب تحاول أن تستأثر بها»(27)، وأضاف:« الثورة بالعمل فلا تثق في أصحاب الكلمات الفخمة الجاهزة.. هذا زمن الحركة والعطاء، فكن مستعدا للتضحية ولا تأبه بالخونة.. الثورة معاناة طويلة.. ممارسة خلق وإبداع وليست جعجعة.. كن حذرا يا حماد الفلاقي يا حفيد الفلاقة.. وابن الجبل الأخضر..»(28).

إنها الكلمات التي لقت صداها الكبير في نفس حماد، فانقلبت حياته رأسا على عقب، فترك زوجته وأطفاله وصار لا يؤمن بشيء، إلا بضرورة إخراج المغتصِب من الأرض.

2- كتلة المستعمِــر:

تمثل هذه الكتلة القوى الاستعمارية التي غزت أرض الجزائر، وعملت على استنزاف خيراتها وتجهيل أهلها والقضاء على هويتهم، ويدخل ضمن هذه القوى كتلة الخونة، وهم الموالين للاستعمار الفرنسي، وقفوا إلى جنبه وسايروه في أعماله القمعية.

لقد عمل الاستعمار والموالين له على سلب الأراضي من أصحابها الحقيقيين. يقول الراوي معبرا عن ذلك:« المعمر فانسا يهيمن على جلّ الأراضي الخصبة وموسى الجواج أصبحت له الأراضي الشرقية التي اشترى بعضها من المعمرين واستولى على قطع أخرى، كانت للفلاحين الصغار، بواسطة الحيلة والضغط»(29).

تركز الرواية أكثر على فئة الخونة الذين باعوا ضميرهم للمستعمر، وفضّلوا المال والأملاك والسلطان على الذود عن الوطن والوقوف ضد المحتل، حيث تصف أفعالهم الشريرة وتصور ضعفهم.

كان موسى الجواج يتاجر في الدجاج، وفي مراهقته توطدت علاقته بالمعمرين والعساكر، أشبعهم دجاجا وازداد قربا منهم فأحبوه وأصبح صديقا للمعمر فانسا، لقد شرّد القايد موسى أكثر من عائلة بعدما استولى على أرضها، وسجن أكثر من رجل في الدوار. إن غطرسته وظلمه فاقت الحدود، بل ربما فاقت أفعال المستعمر نفسه، وفي هذا إشارة إلى أن الخائن لا ملة له، هو أشد قسوة وظلما وجبروتا من المستعمر نفسه، كيف لا وهو يحارب أبناء جلدته ممن يجمعهم دين وثقافة وعادات وتقاليد واحدة.

كان القايد موسى يستهزئ بالمهدي، لقد طلب أن يكون محمد راعيا لغنمه، فانتفض المهدي غاضبا ورد عليه قائلا:«- ولدي لا يرعى غنمك.. ولدي سيدرس ويدرس ويدرس... (..) ظل محمد واقفا في مكانه. اقترب منه أبوه ومسكه بقوة وهزّه قائلا:- أرأيت ماذا يفعل القوي بالضعيف؟ أريدك أن تقرأ وتقرأ حتى تنجح في الدراسة. أنا لا أملك شيئا في هذه الدنيا. إذا مت سأتركك معدما.. لا ترث مني شيئا. فكر جيدا في دروسك. اجتهد حتى تنجح وتخرج من عالم الفقر.. الفقر كفر يا ولدي.. كفر..»(30).

إن أفعال هذه الشخصية هي أفعال المستعمر عينه، لقد كان موسى يحتقر أهالي الدوار ويعيّرهم بفقرهم، بل إنه يعمد إلى تجهيلهم، وهذا ما فعله مع محمد ابن المهدي، الذي يريده أن يكون راعيا على أن يتوجه إلى المدرسة رمز العلم الذي تتنور به العقول وترتقي الأفكار، إنه سلاح آخر يمكّن من القضاء على المستعمِر.

وإذا كانت صفات البطل الثوري الشجاعة والإقدام والقوة، إلى غير ذلك من صفات كنا قد صبغناها على شخصية حماد، فإن صفات الخائن تخالفها. لقد عمدت الرواية إلى إلصاق أبشع الصفات بشخصية موسى الجواج ووقفت ضد سلوكاته الدنيّة.

ومن ذلك ارتداؤه لبرنوس سرقه جلول من كلثوم زوجة سليمان الفحام. لقد نسجته بنفسها، وكانت تنوي بيعه وتجمع ثمنه بنصيب آخر من المال لتشتري به بقرة، لكن حين وقع نظر جلول عليه أخذه عنوة.

تتحدث الرواية أيضا عن جهل شخصية موسى الجواج، حيث اقتنع بكلام الشيخ مسعود، حين وعده بأن يكتب له حرزا، يجعل خديجة تكره زوجها المهدي ويتعلق قلبها

بشخصه المبجّل. كما تشير الرواية إلى جبنه وخوفه، فقد أهانه الحركي جلول الكلبي حين فرت زوجة هذا الأخير إلى الجبل، إنها سعدية ابنة القايد موسى، التي ملت من والدها وزوجها الخائنين. كما أهانه حماد الفلاقي إهانة شديدة بسبب محاولته إغراء أخته خديجة، لقد سمع بهذا الأمر، فثارت ثائرته وهو صاحب النخوة والشرف، فأهان موسى أمام الملأ، ونقدم نماذج لذلك من الرواية. يقول الراوي:« تأوه موسى. أحس برأس الهراوة ينغرز في ثيابه الفاخرة ويصطدم بجسده» و« كاد موسى أن يبكي. يمشي خمسة كيلومتر يركع أمام خديجة» و« وبكى موسى إنهار. لم يستطع أن يتحمل هذه المعاملة التي حطت من سمعته وهيبته، ورأى فيها نفسه تهان أمام سكان المنطقة التي يشرف عليها..

– وماذا فعلت لك يا حماد؟ سامحني إن كنتُ قد أخطأت في حقك» و« الدموع المنهمرة من عيني موسى لم تمس قلب حماد(..)

– يا حماد.. أنت سيدي..» و« شد موسى طرفي برنوسه وجرى هاربا ضحك الحاضرون. تبعه حماد وعندما اقترب منه لوّح بهراوته في الهواء وهوى بها على ظهر الهارب. واي.. واي.. واي.. صرخ موسى وانحنى رافعا ذراعيه ليحمي رأسه»(31).

لقد كان حماد الفلاقي يمقت القايد موسى مقتا شديدا، كيف لا وهو من باع نفسه وشرفه ووطنه للمستعمِر، لذلك ترددت على لسانه عبارات فيها من الإهانة والتحقير لشخصه، إذ كان ينعته بالكلب، والكلب المسعور والشيطان.

جلول الكلبي من طينة القايد موسى، ويدخل ضمن الفئة المستعمِرة، يصفه حماد بأوصاف دنيئة أيضا، فهو خائن وكلب وحركي وقذر ونذل وانتهازي وحقير ومغرور ومتعجرف؛ ليحط من قيمة هذه الشخصية ويعطي انطباعا سيئا عنها.

تُصور الرواية التحول الرهيب الذي ألمّ بجلول، فقد كان رجلا أبيا وعاشقا لأبناء دواره وأهله الفقراء، كما كان صديقا لحماد. يقول عنه حماد:« في طفولتي كنت أحبك لأنك كنت مثلي معدما لا تملك إلا جلبابا ممزقا لا يستر جلدك، كنا نقضي الوقت في الوادي نلعب بالحجارة، ثم صرنا نرعى الغنم. وعندما اشتد عودك رحلت مع والديك إلى ضيعة موسى الجواج. حين غادرت الدوار، شعرت بعدك بفراغ كبير. بقيت حزينا وقلتُ في نفسي:" ضاع صديقي الوحيد في هذا العالم..."»(32).

كان حماد يتذكر الأيام الخوالي، الزمن الذي كان يحادثه فيه جلول عن آلامه وأحزان أهل قريته. يقول حماد:« قلتَ لي يوما: عندما نكبر ونصبح رجالا سنجمع حولنا

كل سكان المنطقة ونقول لهم: هيا إلى الجهاد.. وقلت لي: بالسلاح وحدة تسترجع كرامتنا وعزة الوطن.. بالسلاح وحده نصبح أسيادا في أراضينا الخصبة ونأكل من خيراتها حتى الشبع.. كنت محدثا لبقا تذكر المحرومين والمضطهدين في أحاديثك الحماسية»(33).

لقد حدث انقلاب فجائي لجلول، فمن وطني صادق غيور على وطنه إلى حركي كاذب باع ذمته للمستعمِر؛ كي ينعم بالرفاهية ويعيش حياة البذخ تحت سلطانه.

إن جلول خنجر آخر غُرز في صدر الشعب، حيث صار من المناوئين للثورة، وهو بهذا يقف إلى جنب القايد موسى في مواجهة الفئة الوطنية. هو الذي كان يتحدث عن رغبته المحمومة في القتال ضد الأعداء ثم اللجوء إلى الجبل الأخضر، لينقلب إلى خائن، حمل سيفه ضد شعبه، وغرزه في قلوب أهل دواره الفقراء، وفي قلب وطنه الجريح.

هذا الوطن الذي سلبه الاستعمار وشرّد شعبه، وعمل على نهب ترابه الذهبي، هذا ما فعله المعمّر فانسا، حيث استحوذ على كل شيء، على جميع أراضي" مينة" وترك أصحابها جياعا، إنه يأكل أضعاف ما تأكله العائلات الفقيرة المعدمة.

تظهر الرواية هذا المعمر في لبوس قذرٍ؛ كي تبين عن بشاعة الاستعمار فقد استولى على أراضي الفلاحين الضعفاء وصار يتنعم بخيراتها، في حين كان أهلها الحقيقيون يموتون جوعا، كما عمل إلى جنب حلفائه من المستعمرين على غلق جامع القرية الذي كان يُحفظ فيه القرآن؛ قصد القضاء على هوية الشعب الدينية، وهو إلى جنب كل هذا يمتاز بصفات لا أخلاقية. تقول سعدية زوجة جلول عن أصدقاء زوجها المستعمرين:« لجلول أصدقاء من هؤلاء الأجانب الذين لا يحترمون أحدا... يشربون الخمور ويغنون بصوت عال وسلوكهم الطائش يثير الأعصاب..»(34).

ومثله في ذلك شخصية جانو وهو ابن المعمّر فانسا الذي اغتصب محجوبة الفتاة اليتيمة التي كانت تشتغل خادمة في بيته، ومن هول الصدمة فقدت وعيها واتزانها ولم يُعثر عليها إلا جثة هامدة تحت أغصان أحد الأشجار، لقد انتحرت المسكينة وفي أعماقها جرح ينزف بدماء كل المقهورين في هذا العالم الكئيب.

لم تحضر شخصية جانو بقوة في الرواية، بل إن حضورها كان باهتا، وما أشير إليها إلا للحديث عن أفعالها المشينة بحق الشعب، مثلها في ذلك مثل شخصية الضابط الفرنسي والقبطان الذي قتل سي الزبير، كما حاول الاقتراب من سعدية زوجة جلول بعد تناوله الخمور رفقة أتباعه العساكر.

إن هذه الفئة المغتصِبة، ونتيجة لأفعالها المشينة لاقت نهايات مريرة على يد الفئة الوطنية، فقد قُتل القبطان وتسعة من جنوده وحركي في هجوم للثوار، كما قُتل جانو وجلول الكلبي على يد حماد، في حين هرب المعمّر فانسا، كما هوجمت ضيعة القايد موسى الذي تصوره الرواية في النهاية على أنه جُنّ وفقد عقله.

وإذا كان هذا حال الخونة، فنهاية الوطنيين كانت عظيمة وشريفة، فقد استشهد سي عدة الطالب وحماد وتلقّى محمد رصاصة قاتلة أثناء صعوده الجبل الأخضر.

لقد مات الجميع، وفي هذا دليل على أن كل فرد جزائري مستعد للتضحية من أجل وطنه، كل واحد باع نفسه للثورة والثوار، الكل ترك داره وعياله لينظم لصفوف المجاهدين لا لشيء إلا لتحقيق النصر الذي آمن به الجميع.

يقول الراوي عن المهدي:« تأمل كفه لحظة ثم لثم التراب. الثورة ستنتصر ويغادر فانسا الجزائر. لا، يتمنى أن يراه مقتولا كالكلب سيقف هو، وقتذاك بين الملتفين حول جثة المعمر ويقول لهم:– ألم أقل لكم إنه سيموت وتصبح الأرض لنا.. سننعم بترابنا الذهبي..»(35)، ويقول حماد الفلاقي:« فرنسا لن تبقى في وطننا وجلول الحركي سيموت قبل الاستقلال»(36).

لقد استشهد الجميع ولم يتبق غير سليمان الفحام، الذي كان يعمل في الخفاء لصالح الثورة، حيث كان مكلفا بتجنيد أهل القرية. ونحسب أن في بقائه حيا إشارة إلى استمرارية الثورة، إذ سيظل على دأبه، مسؤولا عن تجنيد الأهالي وإقناعهم بضرورة الالتحاق بالثورة، التي كان حماد الفلاقي يؤمن بانتصارها وبعودة تراب الوطن إلى أصحابه.

<u>الهوامـــش</u>

(1) مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر" دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 14.

(2) http://meflahmed.maktoobblog.com.

(3) http://alkhitabassardi.blogspot.com/2011/06/blog-post.html.

(4) http://meflahmed.maktoobblog.com.

(5) محمد مفلاح، هموم الزمن الفلاقي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجــزائر، 1986، ص 54.

(6) المصدر نفسه، ص 21.

(7) المصدر نفسه، ص 37.

(8) المصدر نفسه، ص 163.

(9) المصدر نفسه، ص 44.

(10) المصدر نفسه، ص 46.

(11) المصدر نفسه، ص 84.

(12) المصدر نفسه، ص 47.

(13) مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر" دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية"، ص 15.

(14) الرواية، ص 114.

(15) المصدر نفسه، ص 7، 8.

(16) المصدر نفسه، ص 6.

(17) المصدر نفسه، ص 9، 10.

(18) المصدر نفسه، ص 12.

(19) المصدر نفسه، ص 27.

(20) المصدر نفسه، ص 78.

(21) المصدر نفسه، ص 75.

(22) المصدر نفسه، ص 22.

(23) المصدر نفسه، ص 79.

(24) المصدر نفسه، ص 168.

(25) المصدر نفسه، ص 8.

(26) المصدر نفسه، ص 10.

(27) المصدر نفسه، ص 55، 56.

(28) المصدر نفسه، ص 52.

(29) المصدر نفسه، ص 52.

(30) المصدر نفسه، ص 45، 46.

(31) المصدر نفسه، ص 32– 34 .

(32) المصدر نفسه، ص 50.

(33) المصدر نفسه، ص 152.

(34) المصدر نفسه، ص 60.

(35) المصدر نفسه، ص 23.

(36) المصدر نفسه، ص 172.